الفصل الخامس

الشيعة الإيرانيون.. ومخططات الدول الغربية

اندفعت قوات الإمبراطورية العثمانية الفتية باتجاه أوروبا فاستولت على منطقة البلقان. وحققت نجاحها الكبير بالاستيلاء على القسطنطينية «استانبول» عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية» لتنهى وجود هذه الإمبراطورية وتطوى صفحتها. وكانت خسارة الغرب لليونان أحد ينابيع الحضارة الغربية أكبر من أن توصف.

وواصلت هذه القوات تقدمها حتى توقفت أمام أبواب فيينا عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر ومع وقع أقدام هذه القوات وهى تتقدم كانت قلوب الأوروبيين تدق وتنبض بقوة خوفا وفزعا وأثارت هذه المخاوف الجديدة ذكريات القوات الإسلامية التى استولت على الأندلس فى «شبه جزيرة أيبريا» وانطلقت منه عبر جبال البرانس باتجاه فرنسا ولولا نجاح شارل مارتل فى وقف هذا التقدم بانتصاره فى معركة بواتييه لارتفعت الأعلام الإسلامية فوق العديد من الدول الأوروبية. وهذه المعركة يسميها العرب بلاط الشهداء، لكثرة عدد المسلمين الذين سقطوا شهداء فى ساحتها.

هذا الحضور الإسلامى القوى سواء من الجنوب الغربى أو من الشرق حفز الدول الغربية المسيحية للعمل لمنعه من تحقيق أى نجاح جديد فى أوروبا أولا.. ولحصاره ثانيا، ثم تفتيته واستنزاف حيويته وقوته تمهيدا لمرحلة الانكسار والانهيار.

وكانت أوروبا المسيحية قد حاولت أن تقضى على العالم الإسلامى بالتوجه إلى منطقة القلب مباشرة بقوات عسكرية تقاتل تحت راية الصليب، إلا أن هذه الحملات التى عرفت بالحروب الصليبية تكسرت موجاتها الواحدة تلو الأخرى. وأخيرا انسحبت بكل جراحها وهزائمها وإن كانت قد ساعدت على تغيير اتجاه العمل.

وتبينت أوروبا أن الإسلام انتشر من منطقة القلب التى شهدت مولد الرسول ﷺ والرسالة على شكل موجات تتخذ شكل الأقواس باتجاه الشرق والغرب فمن الروم شمالا إلى فارس شرقا، ثم مصر وشمال أفريقيا والأندلس غربا، وخراسان وبلاد ما وراء النهر والهند والصين شرقا.

واتخذ المخطط المضاد العمل من اتجاه الأطراف وهكذا ضاعت الأندلس أولا ثم البلقان.. وبدأت الأقواس البعيدة تنكمش واحدا وراء الآخر.

ونتوقف أمام سطور كتبها القس الإنجليزى صامويل مورشاس ١٦١٣- ١٦٢٦ فى كتاب له عن رحلة قام بها للشرق ويقول فى هذه السطور.. كانت الدولة العثمانية باعث رعب للعالم المسيحى.

وهناك الآلاف من السطور الماثلة تضمها الوثائق والكتب سواء أكانت سياسية أم علمية أم تاريخية.. وكان من المنطقى أن تتحرك أوروبا بكل قوة وبكل ما تملك من قدرات اقتصادية وسياسية وعلمية وعسكرية، وأيضا بما لديها من باع طويل فى التآمر لإزالة أسباب هذا الفزع.

وبالرغم من العداء وتناقض المصالح وأنهار الدماء المراقة بين الدول الأوروبية، إلا أنها اتفقت على إضعاف الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. وقدرت انجلترا التى دخلت عصر الاستعمار بكل قوة حتى تحولت إلى إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس فى بداية القرن الثامن عشر، أنها تحتاج إلى قرن من الزمان لتصفية العثمانيين.

وطوال سنوات الصراع العسكرى مع العثمانيين تنبه الأوروبيون إلى حاجتهم إلى حليف أو قوة عسكرية تستنزف قوى العثمانيين من اتجاه آخر وكان العثمانيون قد أبدوا بطولة وقدرة على المقاومة وهم يقاتلون الروس على الجبهة الشمالية الشرقية، وباقى الأوروبيين على الجبهة الغربية.

وعندما اتجهت أفكار الأوروبيين إلى حليف أو قوة تفتح جبهة شرقية أو جنوبية شرقية لتشتيت القوى العسكرية للعثمانيين، بالعمل على ثلاث أو أربع جبهات، تبينوا أن جميع سكان المناطق أو الأراضى والولايات أو الدول المتاخمة لأراضى الدولة العثمانية لها من المسلمين السنة، وهذا يعنى أن المسلمين السنة لن يشتبكوا مع الخلافة العثمانية التى تدين بالإسلام وتتخذ السنة مذهبا. والأهم أنها ترفع راية الدفاع عن الإسلام فى مواجهة أعدائه.

ومن هنا بدأ التفكير فى الاستعانة بالشيعة المسلمين لقتال المسلمين السنة. وكان ذلك يتطلب:

- تكوين كتلة أو قوة شيعية.

- زيادة حدة التعصب للمذهب الشـيعى بين الشيعة حتى يمكن استغلاله لدفع المتشيعين لقتال إخوانهم من المسلمين السنة.
- أن تكون هذه القوة الشـيعية مسـيطرة على أرض مجاورة لأراضى الإمبراطورية العثمانية ليسهل فتح الجبهة المطلوبة.

ولم يكن هناك أفضل من إيران أرض وقلب الإمبراطورية الفارسية القديمة، لتحويلها إلى دولة شيعية ودفعها للصدام مع العثمانيين السنة.

وما أسهل خلق الذرائع وتوفير الأسباب لمثل هذا الصدام.

وبالرغم من أن نسبة الشيعة بين المسلمين فى العالم كانت تبلغ أقل من ١٠٪ وقتذاك، إلا أن الأمر كان يستحق المحاولة.

ووقع الاختيار على الصفويين لأداء هذا الدور.

ويرجع أصل الصفويين إلى الشـيخ صفى الدين إسحق الأردبيلى المسلم الصوفى الشديد الزهـد، تلميذ الشـيخ الجيلانى وزوج ابنتـه فاطمة. ثم خليفته فى رئاسـة الطريقة التى توارثها عن الجنيد البغدادى عن السرى السقطى عن معروف الكرخى.

وقد ورث صفى الدين الطريقة بأتباعها الكثيرين المنتشرين فى جيلان وأذربيجان.

وبعد وفاة الشيخ صفى خلفه ابنه صدر الدين موسى الذى تزايد فى عصره نفوذ الطريقة الدينى والسياسى والمالى نتيجة علاقته ببعض الحكام والقادة والأمراء خاصة تيمور جوركان لنـك، الذى خاض عدة معارك مع السـلطان بايزيد العثمانى الذى كان يسـمى بالصاعقة «ايلدرم» باللغة التركية. وامتلكت الطريقة قوة ضاربة هائلة عندما أطلق تيمور سـراح عدد كبير من أسراه استجابة لطلب صدر الدين.

وهؤلاء الأسـرى كانوا عماد دولة الصفويين فيمـا بعد، كما قرر تيمور وقف اردبيل وما حولها للطريقة الصفوية وإعفاءهم من خراجها، كما أمن كل من يلجأ إلى زاويتهم حتى ولو كان من أعتى الجناة أو أخطر الأشقياء.

وآلـت الطريقـة إلى جنيد ابن صدر الدين بعد وفاته، وكان أول من حمل لقب سـلطان واستغل جنيد الأموال والمريدين فى نشر الدعوة. وأمام زيادة قوة ونفوذ هذه الجماعة. طلب منهم ميرزا جهانشـاه السـلجوقى، ملك إيران آنذاك الابتعاد ليعيشوا فى سلام وإلا قضى عليهم، وفعلا غادر جنيد وأتباعه أردبيل إلى ديار بكر. وهناك اسـتقبله حاكمها حسن بك أق قويونلو بحفاوة، حيث كان من أتباع الطريقة وزوّجه أخته حليمة سلطان.

وشـهدت المنطقـة آنـذاك بداية خيـوط المؤامـرة الغربية لتحويل سـكان إيـران إلى المذهب الشيعى.

الغرب.. وميلاد إيران الشيعية

للقضاء على الإمبراطورية العثمانية لكل ما سببته من فزع وكوابيس للعالم المسيحى أثناء تقدمها تحت رايات الإسـلام فوق أرض البلقان الأوروبية، قررت الدول الأوروبية الاعتماد على الجماعة الصفوية وزيادة قوتها ونفوذها تمهيدا للتالى:

- السيطرة على إيران وما جاورها من مناطق.
- تحويل السـكان إلى شـيعة وحفزهم على التعصب والتطرف والتحريض لقتال دولة الخلافة التى تدين بمذهب السنة.
- تغذية الصراع الشـيعى السـنى لاسـتنزاف العثمانيين وإضعافهـم تمهيدا لمرحلتى التفتيـت والانهيار، وفعلا بدأت جماعة الصفويين تحت قيادة جنيد بن صدر الدين تزداد قوة ونفوذا.

وتنبه ميرزا جهانشـاة السـلجوقى ملك إيران للخطر الذى تمثلـه الجماعة على دولته وعليـه خاصة وهـم يحيطون بإيران من الشـمال والغرب، فالأتباع ينتشـرون فى جيلان وأذربيجان فى الشمال والسلطان جنيد يقيم فى اردبيل غربا. ولحماية نفسه وتأمين دولته طلب منهم الابتعاد عن أردبيل ليعيشوا فى سلام وإلا قضى عليهم.

ولم تكن الظروف قد تهيأت بعد للصدام والاسـتيلاء على إيران، فقرر السـلطان جنيد الابتعاد بجماعته إلى ديار بكر. فى انتظار الظروف المناسبة للعودة.

وهناك استقبله حسن اق قوينلو حاكم ديار بكر وزوّجه من أخته حليمة سلطان.

وكان حسن اق قوينلو من أتباع الطريقة الصفوية.

وبهـذه المصاهرة ازداد جنيد قوة. فقرر العودة لقتال ملك إيران الذى أبعده ورجاله عن أردبيل. وعلى أرض إقليم شـيروان غرب بحر قزوين الذى يضم مدينة باكو حاليا. دارت المعركة. ولقى سـلطان الصفويين الهزيمة وسقط صريعا. فخلفه ابنه حيدر ميرزا. ولم يقبل حسن بك اق قوينلو صهر الجنيد بهذه الهزيمة فخرج بقواته للثأر لمقتل زوج أخته. وتوجه إلى تبريز وانتهى الأمر بأسـر جهانشـاه ملك إيران وضم هذه المناطق إلى ملكه. ومرة أخرى تعود أردبيل للصفويين بعد أن قرر حسن اق قوينلو أن يهبها لهم. ولم يكتف بذلك بل زوج

حيدر ابن جنيد ابنته مارتا التى أصبح اسمها بعد الزواج عالم شاه بيكم وبيكم لقب للنساء يعادل لقب بك للرجال ويكتب باللغة العربية بيجوم.

هكذا أصبح حيدر ابن الأميرة حليمة سلطان شقيقة السلطان حسن زوجا لأميرة هى مارتا ابنة نفس السلطان.

ويوضح الدكتور فتحى الريس فى كتابه القيم «إيران وعلاقاتها الخارجية فى العصر الصفوى» إن عالم شاه ابنة السلطان حسن من زوجته المسيحية تيودورا التى عرفت باسم «دسبينا خاتون». وتيودورا ابنة كالو جوهانس شقيق ديفيد كومنينوس إمبراطور طرابزون الأرمنى آنذاك.

ليس هذا فقط بل كانت أختها متزوجة من كاترينو زينو سفير دولة البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك اق قوينلو. وقد أنجبت «مارتا» عالم شاه بيكم من حيدر سلطان الصفويين ثلاثة أبناء هم: على ميرزا، وإبراهيم ميرزا، وإسماعيل ميرزا.

وعمل حيدر ميرزا على زيادة قوة الصفويين ونفوذهم، ورأى أن يميزهم عن غيرهم فادعى أن الإمام على بن أبى طالب جاءه فى المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طولية تشير إلى أئمة الشيعة الاثنى عشرية وكان يطلق على لابسى العمامة «قزل باش» أى لابسى العمامة الحمراء.. وسمى لابسو هذه العمائم بالقزلباشية.

وتتوالى الأحداث بعد مقتل حيدر ميرزا أثناء قتاله للسلطان خليل، ملك شيروان إلى أن يجلس إسماعيل ميرزا ابن حيدر ميرزا على عرش تبريز عام ١٥٠٠، ولم يتوقف إسماعيل بل قاتل لمد سلطانه، فاستولى على شيروان وأسر ملكها الذى أمر بطبخه وتقديم لحمه للكلاب انتقاما منه لمقتل أبيه السلطان حيدر أثناء هجومه على شيروان.

وضم بعد ذلك العراق العجمى وفارس وكرمان وخوزستان بعد انتصاره على مراد بن رستم، وتوالى ضم الأراضى.

ولم يكن ممكنا أن يتجه بقواته لقتال العثمانيين المسلمين، وأيضا لم يكن مقبولا أن ينضوى كحاكم مسلم تحت مظلة الخلافة العثمانية بأى شكل من الأشكال، ولم يكن مستساغا أن يظل سنيا ومناوئا لأمير المؤمنين الخليفة السنى.

ولمجابهة هذه العوامل رأى تغيير المذهب السنى السائد فى إيران والاتجاه إلى التشيع بل والغلو فى هذا المذهب لإثارة العداء بين المذهبين لدفع الناس للحرب بوازع الحفاظ على المذهب.

وتطابق هذا التفكير مع أسلوب التفكير الأوروبى وما نتج عنه من مخططات لتحويل كتلة إسلامية- شرق آسيا الصغرى- إلى المذهب الشيعى تمهيدا لفتح جبهة أو جبهات أخرى من هذا الاتجاه لإضعاف الإمبراطورية العثمانية تمهيدا لتفتيتها.

وهنا علينا أن نتذكر أن إسماعيل الصفوى ابن مارتا عالم شاه بيكم التى ولدت لأم مسيحية هى تيودورا «دسبينا خاتون» وأن تيودورا هى ابنة شقيق إمبراطور طرابزون.

ويقول الدكتور فتحى الريس: إن هذه المصاهرة تساعدنا على تفسير اتجاه الشاه إسماعيل الصفوى منذ اعتلائه عرش إيران إلى فرض المذهب الشيعى على الناس بالقهر. وعلى أنقاض الجماجم وعبر أنهار من الدماء زادت نسبة الشيعة بين المسلمين. كما يمكننا تفسير هذا التقارب الشديد بين الدولة الصفوية وبين دول أوروبا المسيحية. وتحالف الجميع ضد الدولة العثمانية المسلمة السنية التى أخذت على عاتقها الدفاع عن الإسلام والدول الإسلامية آنذاك.

وقد أدى هذا التحالف إلى إضعاف الدولة العثمانية وإنهاك قواها فى حروب ضارية مع الصفويين شرقا والأوروبيين غربا حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت أقطارها الإسلامية لحساب الدول الغربية التى حولتها إلى مستعمرات ظلت تحكمها نحو مائة عام أو أكثر.

وبعد أن تحقق هذا الهدف استدار الغرب إلى إيران نفسها واقتطع أجزاء كبيرة منها وكان من نصيب الروس الاستيلاء على الأراضى الموجودة شرق وشمال بحر قزوين ومن بينها جمهوريات جورجيا وأرمينيا وأذربيجان وكل البلاد الموجودة وراء النهر مثل أوزبكستان وتركستان وطاجيكستان وقرغيزيا. وانتهى الأمر بالقضاء على الدولة الصفوية بعد انتهاء دورها، ونجاحها فى إنهاك واستنزاف دولة الخلافة وعندما يثور الشيعة الإيرانيون ويهددون مصالح الغرب فإنهم ينسون أنهم ولدوا على يديه وأن تأديبهم أمر يسير.

وبجانب الأسباب الموضوعية لحرب التدخل العراقية ضد إيران الثورة لاستنزافها، فإن البعد التاريخى لم يكن غائبا، وبعد أن حققت حرب التدخل أهدافها تنبه الإيرانيون واستوعبوا الدرس وبدأوا يتحركون فى إطار الهامش المتاح لهم.

إيران شيعية.. كيف؟ ولماذا؟

يرتبط اسم إسماعيل الصفوى بعملية إرغام وقسر سكان إيران والمناطق المجاورة التى خضعت لنفوذه على اعتناق المذهب الشيعى والتخلى عن المذهب السنى.

ولم يكن الأمر يسيرا بل غاية فى العسر. ولكن إسماعيل الصفوى مضى يخوض بحر الدم بكل أعماقه وتياراته سعيا وراء هدفه. وهدف الدول الغربية المسيحية فى نفس الوقت، ونحن نعلم أن إسماعيل الصفوى. ابن لأم مسيحية هى مارتا وجدة مسيحية هى تيودورا.

وعندما قتل أبوه حيدر ميرزا أثناء قتاله للسلطان خليل ملك شيروان «أرمينيا» اضطربت أوضاع هذه المنطقة من إيران اضطرابا شديدا وتوالى جلوس الملوك وعزلهم أو قتلهم.

ولخشية أبناء حيدر ميرزا على وإبراهيم وإسماعيل على أنفسهم اضطروا إلى الفرار، ولكن قوات السلطان رستم تعقبتهم واستطاعت قتل على الابن الأكبر، وتمكن إبراهيم وإسماعيل من الفرار واللجوء لـ «كاريكا» حاكم جيلان.

وظل إسماعيل لدى حاكم جيلان وعندما بلغ الثانية عشرة أعرب عن رغبته فى العودة إلى أردبيل، ولكن الحاكم طلب منه البقاء عامين آخرين، وخلال تلك الفترة بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا. وقال إسماعيل ميرزا: «الآن حان وقت خروجى». ومن المنطقى أن ندرك أن غلاما فى الثالثة عشرة من عمره لا يمكنه أن يتحرك من تلقاء نفسه. ولكن الحلقة المحيطة به والتى وضعت حوله بعناية. كانت صاحبة التأثير الأوفى عليه وعلى قرارته.

وغادر إسماعيل وأخوه إبراهيم ولاية جيلان ومعهما عدد من المرافقين والمريدين، وتوجهوا إلى أردبيل وعلى امتداد الطريق التف حولهما ٣٠٠٠ من قدامى المريدين. ودخل الجميع أردبيل، وحاصروا بيت الحاكم. وعندما مثل الحاكم أمامه وعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأن عليا ولى الله»، وعندما رفض الحاكم أمر بحرقه، وكانت أول نار يوقدها لإحراق المخالفين، وتلى ذلك إيقاد نيران كثيرة.

وتعتبر هذه الواقعة أول تحرك إيجابى لإرغام الناس على التشيع: بعدها أمر بجمع أهل المدينة من السنة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع. وضم من نطق بها إلى رجاله، ومن رفضها ألقى به فى النار واضطرت الأغلبية إلى التشيع خوفا من الحرق. ومن الغريب أن بعض قرى أردبيل بعد كل ما جرى مازالت سنية حتى الآن.

وبهذه الخطوة وصل عدد رجاله إلى ١٤ ألف رجل ترك نصفهم بالمدينة لحمايتها، وتوجه بالآخرين إلى تبريز العاصمة.

ودارت معركة بينه وبين ألوند ميرزا تحقق له فيها الانتصار. وعندما أخبره رجاله أن هناك عشرين ألفا من جيش ألوند ميرزا مازالوا على قيد الحياة أمر رجاله بالإبقاء على حياة من يتشيع وقتل من يأبى.

وقبل أن يدخل فى المذهب – ما يقرب من ٣٠٠٠ – استطاع حوالى ٣٠٠٠ آخرين الهرب ولحقوا بملكهم ألوند ميرزا. وخلال نصف نهار تم قتل حوالى ٤١ ألف رجل. ودخل إسماعيل الصفوى تبريز عام ١٥٠٠. ليجلس على عرش جده لأمه حسن اق قوينلو الذهبى وكان على مشارف الرابعة عشرة من عمره. وبدأت إجراءات فرض المذهب الشيعى بمدينة تبريز.

ويقول الدكتور فتحى الريس: إن رجال الشاه إسماعيل الصفوى حذروه من خطورة الإقدام على ذلك الأمر. وأوضحوا له أن إعلان المذهب الشيعى قد يؤدى إلى قيام السنة الذين يشكلون أكثر من ثلثى عدد السكان بالثورة ضده مما قد يعرض ملكه للخطر. ورد عليهم بقوله إن الإمام على بن أبى طالب قد كلفه بهذه المهمة!! ثم أمر القزلباشية – جنوده الذين يرتدون العمائم الحمراء – بالتجمع فى المسجد الجامع يوم الجمعة الذى حدده لإعلان المذهب رسميا.

وذهب الشاه إسماعيل وحمل القزلباشية سلاحهم. وصعد المنبر شاهرا سيفه. وعندما قرأ الخطبة باسم الإمام على وأئمة الشيعة، حدثت همهمة بين المصلين. فأطبق عليهم القزلباشية وطلب منهم الشاه أن يتبرأوا، أى أن يتبرأوا من خلافة أبى بكر وعمر وعثمان. لأنهم تولوها بغير حق من وجهة نظر الشيعة، وإلا فإن القتل جزاء من رفض. فتبرأوا جميعا من شدة الخوف.

وخرج قائد التبرأيين سائرا أمام الشاه إسماعيل الصفوى وهو يحمل فى يده بلطة ويردد عبارات التبرؤ. ومن لم يرددها وراءه قطع رأسه فورا.

وكان إسماعيل الصفوى مدركا أنه لن يستطيع أن يخوض الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن يفرض المذهب الشيعى على رجاله أولا وعلى سكان إيران ثانيا وكل الأراضى التى يستولى عليها بحد السيف ولم يكن ذلك سوى الخطوة الأولى. أما الخطوة الثانية فهى التعصب للمذهب وإلى أبعد مدى.

وإذا كان التشيع هو الطريق لقتال العثمانيين السنة. فإن التعصب والغلو والتطرف طريق يدعم الطريق الأول. حيث يكون الهدف من القتال هو الحفاظ على المذهب. وذلك لن يتحقق إلا بالانتصار على الأعداء السنة.

وليكتسب إسماعيل الصفوى مزيدا من النفوذ عمد إلى نيل الصفة الدينية بجانب صفته الدنيوية كملك وقائد لقواته، وهذه الصفة التى تدعم سلطاته المدنية تتأتى بالترويج لفكرة ولاية الفقيه. وطلب الشاه من على بن عبدالعال الكركى العاملى كبير علماء الشيعة بجبل لبنان، أن يعمل لتوطيد دعائم السياسة والملك. ويجيز جلوسه على كرسى الملك والحكم باسم الولاية العامة، وهى من صلاحيات ولاية الفقيه. وبهذا أصبح الشاه إسماعيل بصفته الدينية تلك يعلو فوق أى سلطة أخرى فى الدولة.

ولأن الفقيه أو الإمام لدى الشيعة له الحق فى خُمس مكاسب ودخل كل فرد شيعى ولأن الشيعة يحترمون دفع هذه الأخماس بل ويحرصون عليها لنيل رضا الإمام، بكل ما يعنيه ذلك. فإن لنا أن نتصور ضخامة المبالغ التى يتم جمعها نتيجة لذلك. وما يمكن أن توفره هذه الأموال من إمكانيات وقدرة على الحركة للحاكم الإمام.

وهذا الدخل يتجاوز بكثير جدا كل ما يمكن أن تحصله الدولة من ضرائب. وقد تكدست خزائن الصفويين بالثروات والأموال.

ومن المنطقى أن توفر الأموال للشيعة نتيجة الأخماس، ساعدهم على تسليح الجيوش والإغداق على القادة والجنود وساعدهم أيضا على تجنيد الجواسيس والعملاء وتمويل عملائهم وأنصارهم فى الدول المجاورة أو الدول المستهدفة.

وعندما استقرت الأمور فى تبريز وما حولها توجه الشاه إلى مازندران عام ١٥٠٣ حيث حاصر قلعة «حبله رود» التى تحصن فيها حاكمها حسين كيا وقطع عنها الماء. وعندما استسلم كل من كان بالقلعة أمر بإحراقهم جميعا رجالا ونساء وأطفالا وكهولا فى بيوتهم وحصونهم وانتقل ليواجه التركمان الجغتائيون فى طبس على حافة الصحراء الكبرى الإيرانية عام ١٥٠٤ حيث قتل منهم سبعة آلاف فرد وذاع خبر هذه المذبحة فى أرجاء خراسان «أفغانستان» فعمها الخوف من بطش الشاه. وفى عام ١٥٠٨ دخل الشاه إسماعيل بغداد، حيث أجلس خادمه على عرش العباسيين استهزاء واحتقارا. ولم ينج من غضبه لا الأحياء ولا الأموات، فقد نبش قبر الإمام أبى حنيفة وأخرج عظامه وأحرقها.

ولم يفعل الشاه ذلك اعتباطا، فقد أراد به استفزاز العثمانيين السنة بعد أن أصبح مستعدا لمواجهتهم، وفتح جبهة من اتجاه الشرق بعد أن أصبح على حدودهم الشرقية.

ولم يكن ممكنا أن يتنبه العثمانيون إلى الكمين الذى نصبه الغرب واستخدم فيه الصفويين، فقد كان التخطيط محكما وبالغ الدقة والدهاء وطول النفس.

السطور الأولى من أسطورة الإمام الغائب

من هو الإمام الغائب عند الشيعة؟

والإجابة عن هذا السؤال تعتبر مدخلا لفهم جانب من الأسباب التى دفعت الدول الغربية المسيحية إلى الاعتماد على الشيعة لقتال الإمبراطورية العثمانية السنية المذهب. تمهيدا لتصفيتها واقتسام تركتها. وأيضا فإن الإجابة تضيء الطريق أمام الباحثين عن الحقيقة فيما يتعلق بالمذهب الشيعى والمتطلعين لمعرفة الأبعاد والجذور الحقيقية خاصة بالنسبة للكتلة الشيعية الكبيرة التى تتبع طريق الإمامية الاثنا عشرية.

والإمام الغائب أو المهدى المنتظر أو صاحب الزمان أو قائم آل محمد أو الحجة أو غير ذلك من الألقاب التى يلقب بها والتى تزيد على المائة. هو الحفيد التاسع لعلى بن أبى طالب وهو محمد بن الحسن العسكرى بن على الهادى ابن محمد القانع بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الأحفاد التسعة جدهم على بن أبى طالب وآباهم الحسين وأخاه الحسن صاروا اثنى عشر إماما. هم أئمة الشيعة الاثنى عشرية أو الجعفرية.

وإذا كانت هذه سلسلة آبائه. فمن هى أمه؟

وهذا هو السؤال العمدة. أو عمدة الأسئلة.

وهنا لا يحق لنا أن نحصل أو نبحث عن الإجابة فى مراجع غير المراجع الإيرانية الشيعية ومن الأفضل أن تكون مكتوبة باللغة الفارسية أى أن نرجع إلى مراجع لا يشك الشيعة فى صحتها وصحة ما ورد بها.

وإذا كان الشيعة يسلمون بصحة مراجعهم، فإن ذلك وحده يصلح سندا ينفى أية شبهات يمكن أن تثور فيما لو اعتمدنا على مراجع أخرى.

وتروى مراجعهم أن الإمام الهادى كتب رسالة وبعد أن أغلقها سلمها لخادمه بشر الأنصارى ومعها منديل أصفر به ٢٢٠ دينارا. وطلب منه أن يتوجه إلى بغداد، وهناك يقف عصرا على نهر دجلة حتى تصل السفن المحملة بالجوارى. وطلب منه أن يراقب تلك السفينة التى يتولى فيها البيع عمرو بن يزيد النخاس. وأخبره أن من بين الجوارى جارية تأبى عرض نفسها ولا تدع أحدا يرفع نقابها أو يسمع صوتها.

ولم يكتـف الإمام الهادى بذلـك، بل تمضى الرواية فتقول إنـه أعطى خادمه أوصافا وعلامات منها أنها ترتدى رداءين من الحرير وعلى كتفها شـال من الحرير ليس ذلك فقط بل أخبره أنها ستتحدث باللغة الرومية لترد على إلحاح المشترين والبائعين ثم تقول باللغة العربية «واحسرتاه على عفتى التى انتهكت».

وسيحاول أحد شراءها بمبلغ ٣٠٠ دينار فترفضه وتخبره بأنها لا ترغبه حتى ولو كان له ملك سليمان، وعندما يقول النخاس: «ليس هناك مفر من بيعك» سترد عليه بقولها: «لا تتعجل فسوف يظهر المشترى الذى أريده».

ويواصل الإمام الهادى تعليماته لخادمه بشـر ويطلب منه أن يتقدم عندئذ من النخاس ويسـتأذن أن يطلع الجارية على رسـالة من أحد الأشراف مكتوبة بالخط الرومى. ويخبره أنه لو مالت الجارية لصاحب الرسالة فسيشتريها.

وينفذ بشـر تعليمات سـيده «على الهادى»، ويحكى أن الجارية ارتفع صوتها بالبكاء عندما قرأت الرسالة وتعلن بقوة رغبتها فى صاحب هذه الرسالة وإلا قتلت نفسها.

وبنـاء علـى هذا الموقف سـاوم بشـر النخاس حتى وافـق على بيعها لـه بما يحمله من دنانير.

وفى الحجرة التى استأجرها عادت الجارية لتقرأ الرسالة وتقبلها وتمسح بها عينيها. وعندما تسـاءل بشر كيف تفعل ذلك برسالة لم تر صاحبها أجابته بأنه يجهل عظمة أبناء وأوصياء الرسول.

ثـم أخبرته أن اسمها نرجس، وأنها ابنة يسـوع بن قيصر ملـك الروم وأنها من بنات شمعون بن حمون الصفا وصى عيسى بن مريم عليه السلام.

وقصت عليه أن جدها القيصر أراد أن يزوجها لابن أخيه فجمع كل القسس والرهبان، واختار من بينهم ٣٠٠ بالإضافة إلى ٧٠٠ من أمراء الجيش وأصحاب المناصب و ٤٠٠٠ من الأشراف والأعيان وكبار العسكريين. وأخرج عرشا مزينا بالجواهر ووضعه فى وسط القصر علـى قوائـم مرتفعة وأجلس عليه ابن أخيه. وعندما بـدأ الرهبان فى القراءة من الأناجيل المفتوحة، اهتز القصر فجأة، وتسـاقط الذين بالقصر وتحطمت قوائم العرش وسـقط الأمير فاقدا الوعى والإدراك.

وقال القسـس الذيـن اصفرت وجوههم من الخوف وارتعشـت منهم الأطراف للقيصر: «إن هذا الحادث دليل على مظاهر سـوء وأنه قال سـىء ولكن القيصر أمر بإعادة الصلبان

إلى أماكنها وتثبيت القناديل والتماثيل. وبدلا من أربعة قوائم أمر بتثبيت العرش على ٤٠ قائما، وأجلس عليه أخا آخر من إخوة الأمير الذى سقط من فوق العرش ليأخذ مكانه كزوج للأميرة فربما كان حظه أفضل فيقضى على نحس الأمير السابق، ولم تختلف النتيجة فقد انقلب العرش عندما تعرض القصر للزلزال ثانية.

وساد الرعب والهلع وجلس القيصر وحيدا حزينا، واختفت الأميرة مع همومها. ولما أقبل الليل رأت حلما مهولا، فقد اجتمع المسيح مع شمعون الصفا وجمع من الحواريين فى غرفتها، ونصبوا منبرا من النور يصل ارتفاعه إلى عنان السماء فى نفس المكان الذى كان فيه عرش القيصر.

وتواصل الأميرة حكايتها فتقول إنها رأت آنذاك رجالا نورانيين وأنهم أنبأوهم أن الرسول المصطفى ﷺ ووصيه وصهره على بن أبى طالب ومعهما ثمانية من أبنائهما قد حضروا وجلسوا ثم التفت الرسول إلى عيسى: «وقال له ياروح الله لقد حضرت لكى أصل نسبى بنسبك وأخطِب الملكة نرجس لابنى أبى محمد حسن العسكرى. فنظر المسيح إلى شمعون وقال له: إن السعادة قد جاءتك فاعقد رحمك برحم آل محمد ﷺ فوافق شمعون، وعندئذ صعد الرسول إلى المنبر وألقى خطبة بليغة وزوجنى لأبى محمد. وشهد المسيح والحواريون على هذا».

وتواصل نرجس روايتها. فتقول إنها لم تقص هذه الرؤيا على أحد خشية أن تقتل. واحتفظت بهذا السر السماوى فى قلبها لم تبح به لإنسان قط ولكنها كانت واثقة من أن رؤياها صادقة وقد استولى عليها حبها لأبى محمد، وتسبب ذلك فى نحافتها التى أزعجت أباها وجدها اللذين أحضرا لها الأطباء لعلاجها، ولم يفلح أى علاج معها وعندما سألها والدها عما إذا كان لديها أمل ترغب فى تحقيقه. طلبت منه أن يفك القيود والأغلال عن الأسرى المسلمين، فربما شفاها المسيح وأمه واستجاب الأب لطلبها وأفرج عن البعض فتظاهرت بالسعادة وتناولت بعض الطعام وأدى ذلك إلى تحسن معاملة أبيها للأسرى المسلمين.

وبعد ١٤ يوما على رؤياها، رأت فى النوم فاطمة الزهراء وسمعت صوتا يقول لها هذه أم زوجك فقالت لها: «إننى أشكو إليك أبا محمد» وبكت رغما عنها. فأجابتها بقولها: «مادمت على دين المسيح فلن يحضر ابنى إليك، وإن كنت تريدين رضاء الله والمسيح فيجب أن تختارى الإسلام حتى تحظى بزيارة أبى محمد».

فردت عليها بأنها مستعدة بقلبها وروحها، فطلبت منها أن تقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله». فاستجابت لطلبها بعدها احتضنتها فاطمة الزهراء وقالت لها: «اسعدى فسوف تحظين قريبا برؤية أبى محمد» واستيقظت من النوم من شدة الشوق وبكت ثم استغرقت فى النوم من جديد فرأت الإمام حسن العسكرى فسألته لماذا كل هذا الجفاء؟ فتنت قلبى بحبك ثم ابتليتنى بالفراق حتى صرت إلى هذه الحال، فأخبرها أن شركها كان سبب التأخير وأنه سيأتى إليها كل ليلة إلى أن يجمعهما الله فى الواقع والظاهر.

وقالت نرجس لبشر: ومنذ تلك الليلة وحتى الآن نلت بركة زيارة أبى محمد كل ليلة.

وقد أصبحت نرجس بعد ذلك زوجة للحسن العسكرى وأما لابنه محمد الذى اختفى فيما بعد ليصبح هو الإمام الغائب.

أى أن أم الإمام مسيحية جذورها تمتد لشمعون الصفا وصى عيسى بن مريم وجدها قيصر ملك الروم، وبهذه الأمومة التى نسجها الخيال الشيعى تحت ضغوط المؤثرات المختلفة الخارجية والداخلية. والارتباطات الخلفية غير المنظورة، زاوج الشيعة بين المسيحية والإسلام.

ولم يكن هذا الزواج سوى مقدمة للأسطورة التى نسجوها حول الإمام الغائب.

الأسطورة..

أسطورة عودة الإمام الغائب ليملأ الأرض عدلا ونورا بعد أن ملئت جورا وفجورا، لا تختلف فى كثير من ناحية الفكرة عن أساطير مشابهة تتجاوز مجرد كونها أسطورة. فقد لعب هذا الاقتناع دوره مع باقى عقائد الشيعة فى دفع الشيعة الإيرانيين لصدام دموى مع الإمبراطورية العثمانية. وانتهى الأمر بسقوط دولة الخلافة، ليس ذلك فقط بل وانطواء صفحة الخلافة تماما عام ١٩٢٤.

والغرب المسيحى الذى ساعد على نمو الشيعة، وعلى سيطرتهم على مقاليد الأمور بإيران تحت إمرة الصفويين، هو الذى قضى على دولة الصفويين عام ١٧٣٥ بعد أن أدوا دورهم فى إنهاك الإمبراطورية العثمانية. ومازال الشيعة خاصة فى إيران يسيرون على نفس الدرب بدرجات متفاوتة القوة وفقا للضغوط التى يتعرضون لها، لتحقيق أهداف تم التخطيط لها بالعواصم المؤثرة بالعالم الغربى. وهذه الأهداف تتناقض بالضرورة مع آمال وأحلام دول عربية وإسلامية كثيرة ولمواصلة البحث عن الجذور كان من الضرورى التعرض لأسطورة الإمام الغائب والسطور الأولى لهذه الأسطورة كشفت لنا أن الإمام محمد بن الحسن

العسكرى وهو الإمام الثانى عشر الذى اختفى والذى يؤمن الشيعة خاصة الإمامية الاثنى عشرية بعودته؛ ولد لأم مسيحية وبزواج أبيه الحسن العسكرى من نرجس حفيدة شمعون الصفا وصى عيسى عليه السلام من ناحية الأم وحفيدة قيصر ملك الروم من ناحية الأب، نسجت الأسطورة تزاوجا بين الإسلام والمسيحية ثم باجتماع الرسول المصطفى ﷺ والمسيح عليه السلام فى رؤيا رأتها نرجس أثناء نومها.

وكان من الضرورى أن تمهد الأسطورة طريقا للجمع بين نرجس والحسن العسكرى بالرغم من تباعد المكان.

ولم تجد الأسطورة خيرا من وقوع الأميرة فى أسر المسلمين وأن تباع كجارية فيشتريها بشر خادم الإمام الهادى ولنسمع معا نرجس وهى تقص قصة أسرها.

تحكى نرجس أن أبا محمد الحسن العسكرى الذى تراه فى منامها كل ليلة، أخبرها أن جدها القيصر سيرسل عما قريب جيشا لحرب المسلمين، وأنه سيذهب بنفسه فى أعقاب هذا الجيش، وطلب منها أن تذهب معه لكى يجتمع شملهما.

وفعلا صحبت نرجس أباها فى هذا السفر وتمت المواجهة فجأة بين الجيشين وانتصر المسلمون، ووقعت فى الأسر وانتهى الأمر بوجودها مع بشر وأوصلها بشر إلى الإمام على النقى الذى سألها كيف تشرفت بالإسلام، فأجابته بقولها: ماذا أقول عن شىء أنت أعلم به منى. فبشرها بأنه سيكون لها ابن سيملأ الدنيا من مشرقها إلى مغربها بالعدل والأمان بعد أن تكون قد ملئت بالجور والظلم.

فسألته، ممن؟ فأجابها، من الشخص الذى خطبك له رسول الله ﷺ من عيسى بن مريم وشمعون، وواصل الإمام على النقى حديثه وقص لها كل الأحداث التى سبق أن روتها لبشر الأنصارى خادم الإمام على الهادى الذى اشتراها من بغداد.

واستدعى الإمام أخته حكيمة خاتون، وعندما حضرت قال لها: هذه هى المكرمة التى تنتظرين رؤيتها، فاحتضنتها وقبلتها وهنأتها. وطلب الإمام من أخته أن تعلمها الفرائض والعلوم لأنها ستكون زوجة ابنه وأم المهدى قائم آل محمد.

وتمضى الرواية إلى أن يولد الإمام المهدى يوم الخميس ليلة الجمعة منتصف شعبان ٢٥٥هـ فى عهد المعتمد العباسى.

وتروى حكيمة خاتون بنت الإمام محمد التقى وأخت الإمام على النقى وعمة الإمام حسن العسكرى «نسبة إلى حى العسكر فى مدينة سامراء التى ولد وعاش ومات بها وليس

لأنه كان قائدا أو عسكريا» أنها ذهبت فى يوم الخميس ليلة النصف من شعبان إلى منزل ابن أخيها إمام الزمان حسن العسكرى وعندما أرادت الانصراف طلب منها البقاء لأن ابنه العزيز سيولد هذه الليلة وهذا الإبن سيحيى الحق تعالى به الأرض بالعلم والإيمان والهداية بعد أن ماتت بشيوع الكفر والضلال.

وسألت حكيمة خاتون ابن أخيها ممن سيولد هذا الولد فأجابها قائلا من زوجته نرجس. وبعد سماع هذه الإجابة ذهبت إليها ونظرت ظهرها وبطنها، فلم تر أثرا للحمل فاستولت عليها الحيرة، إلا أن الحسن العسكرى أوضح لها أن أثر الحمل سيظهر عليها فى الصباح. مثلها فى ذلك مثل أم موسى.

وبهذه الإجابة حاولت الأسطورة أن تبنى جسورا مع الديانة اليهودية. مثلما زاوجت من قبل بين المسيحية والإسلام بزواج حسن العسكرى الإمام الحادى عشر من نرجس حفيدة شمعون الصفا وقيصر الروم.

وتروى حكيمة خاتون أنها كانت على وشك الشك فى الأمر، فأتاها صوت الإمام حسن من حجرته طالبا منها ألا تشك فقد اقترب وقت الميلاد. وفى الصباح استولى الاضطراب على نرجس فجأة، فضمتها إلى صدرها وقرأت عليها سورة القدر استجابة لطلب ابن أخيها.

وتقول سطور الأسطورة إنها سمعت الطفل يقرأ معها نفس السورة وهو فى بطن أمه.

ومثل هذا الحديث يذكرنا بالآية ٦٤ من سورة آل عمران، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾، وهو يمثل مزيدا من الربط بين الإسلام والمسيحية فها هو الإمام الغائب يعيد قصة المسيح عليه السلام، ولا يتوقف الخيال عند الحديث فى المهد صبيا، بل يمضى إلى أبعد من ذلك حيث يتحدث وهو فى بطن أمه. أى أن فى الأمر معجزة مشابهة لمعجزة المسيح، وإن كانت أكثر إعجازا.

وكان منطقيا أن يتحدث الإمام بعد مولده مباشرة لتكتمل سطور المعجزة الشيعية فما أن ولد حتى سجد ووجهه للقبلة وقد رفع سبابته نحو السماء، وقال «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن جدى رسول الله وأن أبى أمير المؤمنين وصى رسول الله»، ثم ذكر الأئمة واحدا بعد الآخر حتى وصل إلى نفسه.

وتصر الأسطورة على أنه لم يكن لبشر دخل فى عملية الميلاد. فقد حجبت سترا بين حكيمة خاتون ونرجس عندما حانت لحظة الميلاد، بحيث لم تعد تراها، فخافت

وهرعت نحو الإمام حسـن. فهدأ من روعها وطلب منها العودة حيث سـتراه فى مكانه. ولما فعلت ذلك تبينت أن الستر قد زالت. ورأت نورا فى عينى نرجس بهر عينيها ورأت المولود ساجدا.

وأود أن أؤكد أننى لم أذكر حرفا واحدا إلا مسـتندا إلى مرجع يرجع إليه أهل المذهب الإمامى الاثنى عشرى ومن هذه المراجع كتاب بعنوان «مهدى القائم» للمؤلف حسين عماد زاده ومنشور عام ١٣٦٣هـ ومكتوب على الجزء العلوى للغلاف باللغة الفارسية «زند كافى حضـرت ولى عصـر صاحب الزمان» وقـد طلبت من الدكتور فتحى الريس أسـتاذ التاريخ الإسلامى أن يترجمه إلى العربية وقد استجاب مشكورا.

وبمثل هذا النسـيج الأسـطورى بكل أبعاده جرى حفر مجرى التيار الشيعى بعيدا عن فكر وعقائد السنة. وكان ذلك ضروريا لزرع التناقض والتضاد بين أنصار المذهبين وبما يكفى لإشعال نيران الصراع. وكانت أولى الثمار لهذا الصراع المساهمة فى القضاء على الإمبراطورية العثمانية. ولكن هل توقف استخدام الشيعة لصالح الأهداف والمخططات المشبوهة؟

وإذا كانت الإجابة.. بلا.. فهل كانت مسـاعدة شـاه إيران لإسرائيل فى صراعها ضد العالم العربى مرحلة من مراحل هذا المخطط؟

وهل يمثل احتكاك إيران بدول منطقة الخليج وشـبه الجزيرة واحتلالها للجزر العربية الثلاث مرحلة أخرى؟

وهل تمثل المطالبة بدور فى أمن البحر الأحمر ودعم المتطرفين بالمال والسلاح خطوة على طريق تحقيق هذه الأهداف؟

والأسئلة مازالت كثيرة، والشواهد التى تكشف حقيقة الدور الإيرانى الجديد أكثر وسطور التاريخ تبين لنا أن دور الشيعة الإيرانيين فى خدمة المخططات المعادية مازال مستمرا.